

الفصل الأول

أعلى مراتب الكمال الخلقي الإنساني

إن الانفراد بالكمال الإنساني في أي جانب من جوانب الكمالات الخلقية يقتضي أن يكون صاحبه هو ذلك النبي المبعوث بالرسالة العامة الخاتمة الجامعة لكل كمال ، إذ لا يتأتى هذا الانفراد إلا بالتحقق بهذه المرتبة التي تستلزم هذا الكمال بداهة ، فلا يتصور عنها غيره .

وإن لم يكن له صلوات الله وسلامه عليه سوى مكارم أخلاقه الشاملة لكفت دليلا على أنه المثل الإنساني الأعلى الذي تصدر عنه جميع الفضائل الكاملة التي يمكن أن تصدر عن بشر أو يتصف بها .

وهذا هو ما تدل عليه البديهيّات العقلية ، ولكي نقررها ، نطرح هذا السؤال الذي لا يحتاج جوابه إلا إلى العلم الضروري البديهي :

من هو الذي ينفرد بأعلى مراتب الكمال الخلقي الإنساني ؟

إن الذي ينفرد بالنهاية في الكمالات الإنسانية يجب أن :

- ١- يبلغ الغاية القصوى للبشر في معرفة كمالات الخالق سبحانه وتعالى ، وما يليق به عز وجل ، وهذه المعرفة هي مصدر جميع الكمالات إذ من المحال أن يتحقق الإنسان بالخلق السوي الذي يسعده ويسعد البشر دنيا وآخرة ، مالم يعرف خالقه المعرفة الصحيحة ، ومعرفة الحق عز وجل لا تكون صحيحة إلا إذا كانت عن طريق الوحي الإلهي ، فتكون حينئذ طبقا لما عرف به الحق عز وجل نفسه . ومن المحال أيضا أن تتحدد المسؤولية الأخلاقية تحديداً شاملاً كاملاً بدون هذه المعرفة وأن بلوغ غايتها القصوى يستلزم الانفراد في جميع الكمالات التي وهبها الخالق سبحانه وتعالى للنوع الإنساني .

٢- أن يبين للبشر جميعا آداب معاملة الخالق سبحانه لتكون مصدرا للكمال في العلاقات البشرية ، وأن يعرفهم بكل طريق يفضي إلى سعادتهم وصلاحهم ، فهو أحرص الخلق على إيصال الخير إليهم كما تقتضيه مرتبته ، ومعنى هذا أيضا أنه يجب أن يتحقق بأعلى مراتب العبودية لله عز وجل ، إذ من المحال أن يفصل للعالمين مراتب العبودية لله تعالى ويكون ناقصا في أية ناحية من نواحيها .

٣- لا بد أن يفصل الحجب التي تحجب عن بلوغ مراتب الكمال طبقا لاستعدادات النفوس البشرية ، ويدخل في ذلك : بيان أوجه الزيف في العقائد المنحرفة التي تضلل البشر بقدر ما فيها من الزيف ، ونسف القيم المزورة التي تتنافى مع مقتضيات الخلق القويم والصراط السوي .

٤- بيان جميع الأمور التي لا يتم الإيمان إلا بها - شعب الإيمان - ومن الجهة الأخرى يفصل الأمور التي تؤدي إلى مسخ النفوس البشرية وإلى فسادها مثل النفاق والشرك والكفر وكل ما يؤدي إلى انحطاطها حسا ومعنى .

٥- الإحاطة بطبائع النفوس البشرية لتقرير ما هو ملائم لاستعداداتها .

٦- تفصيل الجزاء الدنيوي والأخروي اللائق بكل مرتبة من مراتب الإنسان ، وهذا يقتضي الإحاطة بكل ما يتعلق بمصير الإنسان دنيا وأخرى. كما يدخل تحته بيان العلاقة بين المعاني المجردة في الدنيا والجواهر المحسوسة في الآخرة .

كل هذا يقتضي الإحاطة بجميع حقائق الموجودات ، ولما أن هذه الإحاطة ليست إلا لله سبحانه وتعالى فإن تفصيل كمالات الألوهية وبيان كل ما يتعلق بالخلق في كل زمان ومكان لا يكون إلا بوحى إلهي يفصل الوجود كما هو عند الله عز وجل .

فالمثل الإنساني الأعلى الذي ينفرد بالنهاية القصوى في الكمالات الإنسانية يجب أن يكون :

- ١- رسولا نبيا لأن الوحي والتبليغ خاص بالرسول النبي .
- ٢- أن يكون صاحب شريعة جامعة لكل الكمالات الممكنة الصالحة لكل زمان ومكان وهي تتفجر من خاتم الكتب الالهية .
- ٣- يجب أن يكون خاتم النبيين ، فلا نبي بعده ، إذ لا معنى للنبوة بعد أن استوفت شريعته الحكمة من إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وبعد أن حملت رسالته كل مؤمن به مسؤولية تبليغ الدعوة إلى من لم تصل إليه ، فأتباعه المهتدين بهديه يقومون بما كان يقوم به الأنبياء .
- ٤- أن تكون معجزته الكبرى العامة للخلق جميعا : هذا الكتاب الإلهي المحيط بتفصيل كل ما يتعلق بالربوبية والعبودية ومصائر المخلوقات .
- ٥- أن يقوم بتفصيل ما جاء في ذلك الكتاب الإلهي وتبيانه للعالمين .
- ٦- لا بد أن تكون جميع أقواله وأفعاله بالغة نهاية كل كمال إنساني ممكن .
- ٧- لما أن الكلام صفة ^(١) للمتكلم ، ولما أن مرتبته جامعة فكلامه يجب أن يكون جامعاً طبقاً لمستوى مرتبته ، فينطق بجوامع الكلم .

(١) ترتبط اللغة عموماً في جميع صورها بالأخلاق وممن اهتموا بدراسة هذا الموضوع

Stevenson, Charles Lo – Ethics and Language.

٨- لابد من أن تصلنا جميع شئونه ، إذ أن هذه المرتبة تقتضي الشمول والعموم ، فمن لوازمها الثبات لا الزوال ، فإن زالت كان هذا دليلا على أنها مرتبة محلية خاصة بمكان معين وزمان معين .

فمن هذا الذي كانت معجزته الكبرى كتاب الله عز وجل المفصل لجميع الكمالات ؟
من هذا الذي جاء مبينا ومفصلا لكتاب الله عز وجل : فعرف الخلق بما يليق بالله عز وجل ، وصح عقائدهم في الألوهية وطهرها من كل زيغ ، وصح عقائدهم في النبوات حتى يجتنبوا من يفترى على الله تعالى ويحذروا من الركون إلى من يضلّهم ؟

من هذا الذي بين للناس جميع الطرق المفضية إلى سعادتهم وحذرهم من جميع الطرق المفضية إلى شقتهم ؟

من هذا الذي فتح للناس كل مراتب الكمال الإنساني ليرتقي فيها كل بحسب استعدادة ؟

من هذا الذي وضع الأسس اللازمة للتكامل النفسي ولتكامل المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ؟

من هذا الذي نسف كل القيم المزورة التي تفضي إلى تعاسة الإنسان وضياع حقوقه وتضييعه لواجباته ؟

من هذا الذي أعلن الحقوق الكبرى للإنسان ؟

من هذا الذي حرر الفرد من العبودية لغير الخالق سبحانه ؟ فحرره من الذل والخوف . وحرر العقل من كل سلطان إلا سلطان الله سبحانه وتعالى ؟

من هذا الذي تواترت الأخبار بأنه قد بلغ الغاية القصوى في مكارم الأخلاق ؟

من هذا الذي سجل لنا معاصروه جميع أقواله وأفعاله التي تدل على أنه قد بلغ من الصفات المحمودة أتمها وأجملها وأعمها فشملت : العلم والحلم والصبر والسكينة ، والعدل والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصدق والوفاء والمودة والرحمة وكمال الأدب وحسن المعاشرة والهداية للخلق وحب الخير لكل مخلوق ، وإعطاء الحكمة حقها في سائر الأمور مما لا يستوفيه الحصر ، وكيف يحصر المرتبة من هو دونها ؟

لو قرأنا جميع كتب الأديان ، ولو تصفحنا جميع ما وصلنا عن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لما وجدنا غير فرد واحد اجتمعت فيه هذه الخصائص ، فرد واحد أعجز البشر بكتاب إلهي جامع لكل كمال ، فرد واحد جاء بشرية مفصلة مبينة لهذا الكتاب الإلهي فجمعت كل كمال ثابت باق يمكن أن يطرأ على قلب بشر أو لا يطرأ ، فرد واحد هو :

خاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

ولا يوجد كتاب سماوي قد دونه صاحب الوحي كما أنزل عليه وبتوقيف منه سوى القرآن العظيم ، فبلغنا كما أنزله الله عز وجل .

لقد ماتت جميع لغات الوحي ، ولم تبق منها لغة حية سوى لغة الوحي المحمدي يتحدث بها عشرات الملايين . لقد ماتت لغات الوحي السابقة للشريعة المحمدية لأن رسالات أصحابها خاصة ، وبقيت لغة الشريعة العامة الجامعة للكمالات ، لغة الشريعة الخاتمة العامة ، ليتم تبليغ الرسالة المحمدية إلى كل ركن من أركان المعمورة في عصر تيسرت فيه جميع وسائل الاتصال بين البشر .

oboiyadi.com

عقيدة التوحيد القرآنية

هي مصدر كل كمال إنساني

إن الكمال الإنساني يصبح كلمة غير مفهومة عند من لا يدين بالرسالة المحمدية الجامعة ، وإن الإنسانية لتفقد معانيها حين تنقطع صلتها بالهدي والنور المحمدي .

ولو تتبعنا ما جاءت به عقيدة التوحيد القرآنية لوجدناها مصدرا لكل كمال إنساني ممكن : فمن لوازم عقيدة التوحيد القرآنية أنها : —

١- هي السبيل لمعرفة الكمالات الإلهية التي تفتح للبشر أبواب الكمال المطلق.

٢- هي السبيل الوحيد لتكريم الإنسانية وتحرير العقيدة من الأوهام والخرافات والتزوير والضلال ، فهي التي تحول دون تردي البشر في أديان مجعولة يلجأون ويضطرون إلى خلقها لتنظيم وجودهم .

ومن لوازمها تحرير العقيدة من نصب آلهة مجعولة يقيمها الفرد متى شاء ويلغيها متى شاء فيكون تمثيله لخالقه سبحانه تابعا لثقافته ، وتمثيله هذا إما أن يذهب به إلى حد الغموض الذي لا يعقل أو الإسفاف الذي تترفع عنه الكرامة البشرية إذ يقدس الإنسان ما لا يصح تقديسه ويؤله مخلوقا عاجزا مثله : من حيوان أو نبات أو نهر أو أي مظهر طبيعي ، أو الكون كله أو الضمير أو الإنسان أو الروح المطلقة الخ .. وبمقدار انحراف الفرد عن عقيدة التوحيد القرآنية يكون انحرافه عن الصراط المستقيم ، إذ طبقا لهذا الإله المَجْعُول يضع قيمه وأخلاقه ، التي تحدد سلوكه وتصرفاته ، وطبقا لهذا الإله المَجْعُول يحدد مستواه البشري ، وبقدر انحرافه عن هدى المثل الإنساني الأعلى يكون النقص في عقيدته .

٣- هي مصدر الحرية الكاملة للإنسان :

لا يمكن لوجود الفرد أن ينطلق الانطلاق الحر نحو كماله اللانهائي إلا إذا تحرر من كل قيد يعرقل انطلاقه أو يقيد ، ولا يتم هذا إلا إذا تحرر الفرد من عبوديته للمادة بأوسع معانيها : الشيء أيًا كانت صورته : المال ، الأهل ، الحاكم ، المجتمع ، الخ وأيًا كان انعكاسه وانطباعاته في نفس الفرد وعلى قدر هذا التحرر تكون الحرية .

فمن لوازم عقيدة التوحيد في الإسلام : التحرر من الآلهة المزعومة التي يخلقها الإنسان لنفسه ثم يقيد وجوده بها (ليس كمثله شيء) ، ومن لوازمها التحرر من الهوى أيًا كان مصدره فلا يؤثر الإنسان هوى أي مخلوق على مرضاة خالقه (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) ، ومن لوازمها ألا يبتغي الإنسان في جميع حركاته وسكناته سوى مرضاة الله عز وجل ، ومن لوازمها تحرير العواطف من الخوف إلا من الله تعالى ، ومن لوازمها ألا يبتغي العزة إلا فيما شرعه الله تعالى : كل هذا تنطق به الكلمة الجامعة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " منها تتدفق جميع معاني الحرية الحقة التي قتل الناس أنفسهم في سبيل معرفتها ، ومنها تفيض أعلى ألوان الإنسانية التي لا تعرف سوى التفاني في مرضاة الحق عز وجل ، ومنها يستدفق التحرر من جميع الطواغيت الظاهرة ومن الطواغيت الخفية المستترة التي تنصبها النفس في ميادين الهوى لتجري وراءها ، من هذه الكلمة الجامعة يتفجر النور الدافق الذي يطهر الإنسان من جميع عاهاته الباطنة التي توجه سلوكه وتتسلط على مشاعره وتملكها فتجعله يعيش فسادا في الأرض ، ومنها تتبع القوة الهائلة التي تحرره من معوقات نموه السوي وتمده بالطاقة التي يكافح بها كل ما يعترض سبيله : إنها الميزان العدل لجميع أعمال البشر

ونواياهم " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، فعنها تصدر القيم الثابتة الأصيلة التي ترسخ بها قواعد المجتمعات : أصلها ثابت وفرعها في السماء .

٤ - هي السبيل إلى العدالة الحقّة :

لا تتم العدالة الحقّة ولا المساواة ولا الأخوة إلا بقدر تحقق الفرد بهذه الحرية الكبرى التي تصدر عن كلمة التوحيد ، وعلى هذا القدر تكون قوة تصرفاته وسلامتها ، وعلى هذا القدر تكون صحة علاقاته بربه وبنفسه وبغيره هذا هو أساس العدالة بأوسع معانيها - وقد بينت عقيدة التوحيد الحدود التي إذا تجاوزها الفرد فسدت قواه المكونة له ، ووجب حينئذ تطبيق التأديب المناسب له حتى لا يضل ويشقى ويجور على من حوله ، كما أحاطت عقيدة التوحيد القرآنية الفرد والمجتمع بالضمانات الكافية للحيلولة دون الانزلاق في مهاوٍ من الظلم ليس لها قرار .

٥ - هي مصدر الرحمة الكاملة :

تكمل الرحمة في المخلوق على قدر كمال معرفته بالله سبحانه وتعالى وقد فتحت عقيدة التوحيد القرآنية أبواب جميع الكمالات أمام الإنسان ، إذ بينت للبشر المعرفة الواجبة بخالقهم . وهذه المعرفة من تمكن منها أصبح مصدر رحمة لنفسه ولغيره ، ولذا كان صلوات الله وسلامه عليه أوسع الخلق رحمة بالخلق ، و ناهيك برحمة من أنزل عليه الكتاب الجامع الفاتح لمراتب الاستعدادات الإنسانية أبواب معرفة الخالق سبحانه ، وإن أول ما يتلوه القارئ من أي الذكر الحكيم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ منبع الكمالات الصادرة من واجب الوجود الذي وسعت رحمته كل شيء .

٦- هي مصدر المسؤولية الكاملة :

لا معنى للمسئولية الكاملة بعيدا عن عقيدة التوحيد القرآنية . فالمسئولية الكاملة وعقيدة التوحيد القرآنية متلازمان . فالعقيدة حددت وضع الإنسان في الوجود ، وحددت كل نسبة ظاهرة أو خفية يرتبط بها الإنسان بنفسه أو بغيره ، وإذا عرفت الإنسان المعرفة الصحيحة بخالقه ألقت عليه المسؤولية الكاملة في جميع شؤنه وحقوقه وواجباته ، وأي تكريم للإنسان مثل هذا التكريم ؟ أي تكريم مثل هذا الذي يرفع الفرد إلى مستوى الأمة القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، المتعاونة على البر والمجموعة على التخلص من الشر أينما كان ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٨- سورة المنافقون .

عقيدة التوحيد تنهى الإنسان عن أن يتصاغر ، أو يدخل في نفسه أنه غير مسئول عن غيره ، أو أنه يكافح بمفرده ، تنهاه عن هذا وتحمله مسؤولية مقاومة الظلم فلا يخنع ولا يخضع ، كما تحمله مسؤولية النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين . إنها تحمله المسؤولية الكبرى مسؤولية أداء تعاليم الإسلام كاملة غير منقوصة وتبليغها . (اللهم فأشهد . فليبلغ الحاضر منكم الغائب) .

هذه هي المسؤولية الكاملة : التي جعلت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول : لو ضاع عقال بعير بالعراق لسئل عنه عمر — هذه هي المسؤولية الكاملة التي جعلته وهو خليفة يحمل الدقيق والسمن على عاتقه وهو يقول من يحمل عني ذنوبي يوم القيامة ! ولا يترك أهل بيت محتاجين حتى يطعمهم ويسرهم — هذه هي المسؤولية التي جعلت أمين الأمة أبا عبيدة عامر بن الجراح لا يقتني سوى ما يتوضأ به أو ينام عليه . هذه هي المسؤولية التي

جعلت عمير بن سعد أمير حمص: يحمل جميع أثاثه على جمل له حين استدعاه عمر ثم يرفض الإمارة لأنه قال لرجل : أخراك الله . فهو يخشى أن يظلم الناس أمام الله تعالى ، هذه هي المسؤولية التي جعلت علي بن أبي طالب وهو خليفة يرد حفنة من عسل أخذتها ابنته حين تبين أنها من المال العام هذه هي المسؤولية التي توحى بها عقيدة التوحيد القرآنية فتجعل أي حاكم يؤمن بها يسوء بما حمل ، والتي تجعل الفرد مرفوع الرأس دائما في مجتمع تسوده العدالة ويعرف كرامة الإنسان : هذه العزة لا يمكن أن تقوم إلا عن طريق عقيدة القرآن العظيم التي تبين حقيقة معية الخالق للإنسان .

٧- هي مصدر السعادة الحقبة الأبدية :

لا يعقل للسعادة وجود حقيقي دائم دون معرفة عقيدة التوحيد كما بينها القرآن العظيم ، فهي التي تجعل الإنسان يتلذذ بمكارم الأخلاق ، ويفرح بإسعاد الآخرين ، وهي التي تجعله يهرب من الظلم وإيذاء الغير ، وينفر من أي تصرف يسخط خالقه ، لا يعقل للسعادة وجود بدون العدالة التي تقتضيها الحرية الكبرى المتفجرة من عقيدة التوحيد . لا يعقل للسعادة وجود بعيدا عن الهدى المحمدي . ولك أن تطلق ما شئت على اللذة التي تعترى الإنسان سمها سعادة أو غير ذلك ولكنها في الواقع لا تمت إلى السعادة بصلة إلا بقدر صلتها بنور الهدى المحمدي .

ومنذ أعلن رسول الله ﷺ هذه الكلمة الجامعة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" خر الباطل صريعا إذ بددت أنوارها الساطعة كل ظلام يستتر وراءه باطل ، وجردت الضلال من كل سلاح يحتج به ، ذلك لأنها حقيقة الحقائق الثابتة التي يرتكز ويقوم عليها الوجود ، والصراط المستقيم الذي جمع طرائق السعادة ،

وإن نعيم الدنيا والآخرة ليدور حول هذا المحور الخالد الذي يتوقف عليه الكمال الإنساني ، ولا يتذوق الإنسان من السعادة الحقة إلا بقدر قربيه منه أو بعده عنه ، يقول الشاعر عندما غمره فيض هذه السعادة اللانهائية :

ومما زادني شرفا وتيها فكدت بإخصمي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

٨- تقتضي وحدة المثل الإنسان الأعلى :

إن عقيدة التوحيد القرآنية تقتضي وجود المثل الإنساني الأعلى الذي يفصل حقيقة هذه العقيدة الشاملة ، ويحول دون انقسام البشر طبقا لما تسوله لهم أنفسهم . وإن كمال الإنسانية إنما يتوقف على وجود هذا المثل الإنساني الأعلى الذي يرفع الفرد بهديه إلى المستوى الإنساني ، ويحول دون تفرقة البشر إلى جماعات متطاحنة لا يجمعها في الإنسانية جامع أبدا . وإن تعدد المثل لدى كل أمة قد ترتب عليه تضارب الأمم واضطهاد القوي للضعيف وقيام حالة من التوتر الدائم بين المجتمعات لا يقر لها قرار .

فعقيدة التوحيد تقتضي أن الإنسانية واحدة ومثلها الأعلى واحد ، وربها واحد ، ورسالتها الجامعة واحدة . فالإسلام يقرر وحدة التجربة الإنسانية ولا يضع الحواجز بين الثقافات والشعوب ، ويعلن للناس جميعا أن الانطلاق مثل للأفراد وللجماعات وللشعوب إنما يكون على قدر اهتدائهم جميعا بالمثل الإنساني الأعلى للبشر جميعا ، وكلما اقترب السلوك الإنساني في مجال التطبيق الذاتي أو الاجتماعي من المثل الأعلى كلما اقترب من الصواب ، وكلما انحرف وخالف تعاليمه كلما ابتعد عنه ؛ هذا هو الشرط الأساسي لتوافر جميع عناصر القوة في الفرد والمجتمع وتحاشي عناصر الانحلال والضعف التي تعمل على تقويض وجود الإنسان وخفضه إلى ما هو أحط من المرتبة الحيوانية .

٩- تحول دون تكوين ما سموه " الصرح الأعلى " :

والصرح الأعلى أو البنية الفوقية يقصد بها أو به النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاق والعادات والتقاليد وبعبارة أخرى الثقافة بمعناها العام التي تسود في مجتمع ما نتيجة تعلقه بالمادة ، والأصح تسميته بالصرح المادي الأعلى .

وهنا يبدو الإعجاز الذي ليس وراءه مرمى في عقيدة التوحيد القرآنية : إذا أنها تقرر المنهج العلمي الأصيل الشامل لكافة مجالات الفرد والمجتمع ، ومن أبرز سمات هذا المنهج أنه يحول دون تكوين صرح مادي أعلى أو بنية مادية فوقية تكون سجنًا يحبس البشر بين أبعاده ، ويقفل أمامهم الطريق للانطلاق السوي . كما يحول دون قيام شروط التناقض في المجتمع، ثم هو بعد ذلك يضع القواعد لحلها حالما تظهر ، لأن المجتمع البشري تتفاوت فيه درجات الإنسانية بين أفرادها ؛ فلا بد من ظهور التناقض فيه ، وفي مثل هذا المجتمع الذي يتمسك بحبل عقيدة التوحيد القرآنية لا توجد طبقة مُستغلة وطبقة مُستغلة وبذا يمتنع قيام الصراع الطبقي إذ يحل محله التعاون بين الأفراد والخلايا الاجتماعية .

ونسمي الصرح الذي يتدفق من عقيدة التوحيد القرآنية بالصرح القرآني وعلى قدر القرب أو البعد من هذا الصرح يتوقف صلاح الإنسان أو المجتمع أو فسادهما وأي خلل يطرأ إنما ينجم عن الإخلال بشروط المنهج القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فالإسلام يلغي ويقوض الصرح المادي الأعلى ويقيم الصرح القرآني الكامل الذي اشتمل على جميع الكمالات التي تتطلبها الاستعدادات البشرية ، والذي قرر جميع الضمانات التي تحول دون قيام صرح مادي أعلى . وهذه ناحية

من الإعجاز ليست في طاقة المخلوقات جميعا ، وإن النظم لتلتهث في سبيل تقرير جزئية من جزئيات إحدى القواعد التي قررها المنهج الإسلامي ثم هي تعجز بعد ذلك عن ربطها ربطا صحيحا بالنظام الذي يراد إضافتها إليه ، وذلك لسبب بسيط وهو أن الوجود الإنساني له منهجه الكلي المتكامل في جميع أجزائه ولم يكمل هذا الوجود إلا في المنهج القرآني وإن التجاء أي ثقافة إلى ترفيع الوجود البشري لترتفع به إلى المستوى الإنساني إنما هي محاولة لا نستطيع أن نصفها إلا بأنه محاولة تأسيس دين من عنديات البشر ، وهيهات لبشر أن يدعي أنه يستطيع أن ينتظم الوجود الإنساني في دين من عنده ، وقد حاول كثير من جهابذة الفلاسفة الغربيين أو الشرقيين أن يأتوا بنظم تحل محل الدين — كما يفهمونه لا كما هو — وتخصص كل فريق في ناحية واحدة من نواحي الوجود الإنساني : كعلاقة الإنسان بالخالق . أو الوجود . أو المعرفة . أو الأخلاق أو التشريع فإذا بهم يضربون في متاهات وسرايب غارقة في الظلام ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ — ٣٩ — أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور ﴾ — ٤٠ — سورة النور .

تبليغ القرآن للعالمين يستلزم الانفراد بمرتبة

الكمال الإنساني الأعلى فيمن أنزل عليه القرآن

إن الإعجاز القرآني يستلزم أن يقابله إعجاز في الحقيقة المحمدية ، فكما أن الإحاطة القرآنية شاملة لحقائق الوجود كما هي في العلم الإلهي ، فإن الحقيقة المحمدية شاملة لكل كمال إنساني ممكن ، ذلك لأن تبليغ المعجزة العظمى للعالمين - القرآن العظيم - وتفصيله وتبينه للعالمين ، يستلزم التحقق والتخلق بجميع ما جاء في هذا الدستور الإلهي من مراتب الكمال الشاملة للمخلوقات ، إذ من المحال أن يتلقى هذه الكمالات ويؤمر بتبليغها وتفصيلها إلا من كان متصفا بها ، وإن مجرد نزول القرآن الكريم عليه صلوات الله وسلامه عليه إنما هو إعلان إلهي للعالمين جميعا عن المرتبة المحمدية ، وهذا هو تفسير جواب الصديقة الكبرى رضي الله تعالى عنها حينما سئلت عن أخلاقه ﷺ : فأجابت بهذا الجواب الجامع الخالد المشهور (كان خلقه القرآن) وإذا لم يكن في طاقة المخلوق كائنا ما كان أن يحيط بحقيقة كلام الله سبحانه وتعالى ، فمعنى هذا أن كمالاته الخلقية صلوات الله وسلامه عليه لا تحيط بها العقول ، ولا تدرك منها إلا القدر الذي يناسب طاقتها ، وكلما تعمقت أقوى العقول في سبيل اكتناه مكارم أخلاقه ﷺ كلما بهرها جديد لم تعرفه ، وكلما اكتشفت أنها غارقة فيما قبلته استعداداتها من النور المحمدي الباهر ، وأنها لم تدرك سوى ما انعكس على وجودها من ذلك البهاء الساطع ، ولم تشهد من هذا الخلق الكامل إلا ظله ، ولا يزال يفصل بينها وبين حقيقته مراتب لا تنتهي من الكمالات ، التي تُشعرُ بأن ما أدركناه لازال وراء ما وهبه الله تعالى لمن أرسله رحمة للعالمين :

ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
فجوهر الحسن فيه غير منقسم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم
حد فيعرب عنه ناطق بفهم
أحيي اسمه حين يدعى دارس الرمم
حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم
للقرب والبعد منه غير منفحم
صغيرة وتكل الطرف من أمم
قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
وأنه خير خلق الله كلهم

فهو الذي تم معناه وصورته
منزه عن شريك في محاسنه
دع ما ادعته النصارى في نبيهم
فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف
فإن فضل رسول الله ليس له
لو ناسبت قدره آياته عظما
لم يمتحنا بما تعيا العقول به
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
كالشمس تظهر للعينين من بعد
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته
فمبلغ العلم فيه أنه بشر

هذا هو ما يقرره العقل من أول وهلة في حق من أرسله الله تعالى مبينا ومبلغا
ومفصلا للوحي الإلهي الجامع الخاتم للرسالات ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مبين - ١٥ - يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات
إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم - ١٦ - ﴾ - سورة المائدة

إن المرتبة القرآنية تقتضي انفراد من أنزل عليه القرآن العظيم بكل كمال
ممكن . ومن هنا يستطيع أي إنسان عاقل أن يقرر الكمالات الخلقية اللائقة
بمرتبة ذلك النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالبداهة ؛ ولتقرير هذه
الحقيقة نطرح هذا السؤال :

ما هي مكارم الأخلاق التي يجب أن تصدر عن ذلك الذي أرسله الله سبحانه
وتعالى رحمة للعالمين ، ايبليغ كلامه العزيز ، ويبين معانيه بأقواله وأفعاله

وأحواله وأخلاقه ، وينفذ أحكامه ، ليهتدي العالمين بهديه ، ويتبعوا النور الذي أنزل معه ، ويرتقي به كل مخلوق إلى الكمال المناسب لاستعداداته فيسعد دنيا و آخرة ؟ .

إن هذه المرتبة تقتضي أن يكون صاحبها قد بلغ أقصى مراتب الكمال الإنساني الممكن في كل شيء ، ومن الكمالات الخلقية التي يجب أن تصدر عن تلك المرتبة ندرك بدهامة على سبيل المثال الذي يفتح الذهن لإدراك ما شاء من مكارم الأخلاق :

١- كمال حب الله سبحانه وتعالى ، وهذا يستلزم التخلق بكل كمال ممكن يدل على الكمالات الإلهية وبلوغ أقصى مراتب الكمال فيما يقتضيه ذلك التخلق ، وعلى هذا تكون جميع أقواله وأحواله دلالات تامة على الله سبحانه وتعالى ، وفتحة لأبواب الترقى في معارج الكمالات الإلهية التي تقتضيها الأسماء الحسنى ، والتي اشتمل عليها القرآن العظيم ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ٣١ - ﴾ سورة آل عمران .

فهذه المرتبة تقتضي أن يكون صاحبها قد ملك أعنة مكارم الأخلاق ، لأن أي نقص في ذلك إنما يتنافى ويتناقض مع ما تعطيه هذه المرتبة وتقتضيه من انفراد في الكمال الإنساني الأعلى .

وكمال محبة الله عز وجل يستلزم كمال محبة الخلق في الله ، لأن حب الخلق على الوجه الكامل لا يصدر إلا عن حبه تعالى ، وعلى قدر ما يؤتى الإنسان من حب الله تعالى يكون حبه الحقيقي للمخلوقات ، وعلى قدر هذه المحبة يكون الخير الصادر منه إلى الخلق ، وكلما ازداد هذا الحب كمالا ، كلما اشتد اجتهاد الإنسان في سبيل إسعاد الناس ولا حب أجمع ولا أكبر من حب ذلكم

الذي يفصل لهم جميع الطرق الموصلة إلى سعادتهم الشاملة الكاملة دنيا وأخرى ، ولا حب أجمع ولا أكبر من حب ذلكم الذي يجمع العالمين على كتاب الله العزيز المفصل لجميع مراتب أهل السعادة والشقاء .

إن هذه المرتبة تقتضي أن يكون صاحبها مبرأ من كل عيب خلقي فلا يصدر عنه إلا أعلى كمال خلقي ممكن يتدفق من أسماء الله الحسنى فقد جاء في الحديث القدسي (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) الحديث القدسي .

ولذا جاء في مبايعته ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الآية العاشرة من سورة الفتح . ومن ذلك كله يتفرع :

٢- كمال الرحمة بالخلق : وهو نور ناشئ من الرحمة المنتزلة من الله عز وجل على العبد ، وعلى قدر رحمة العبد بالخلق يكون نصيبه من الرحمة الإلهية ، ولما كان تبليغ القرآن العظيم هو الرحمة العامة التامة البالغة للعالمين لذا كانت رحمته صلوات الله وسلامه عليه بالخلق لا توازيها رحمة الناس جميعا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ — ١٠٧ سورة الأنبياء . لذا كان صلوات الله وسلامه عليه يتفطر أسى كلما رأى إعراض المشركين عن الإيمان بالله تعالى حرصاً على هدايتهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا — ٦ ﴾ سورة الكهف .

٣- كمال العفو : فينتفي نهائياً الميل للانتقام ، ولا يبقى للسوء والأذى بالغاً ما بلغ من العنف أن أثر في صاحب هذه المرتبة ، بل يكون بمثابة من لم يقع له شيء يؤذيه ، إذ لو بقي لذلك أي أثر لتنافى مع كمال الحرص على دلالة الخلق على الله تعالى . فهذه المرتبة تقتضي العفو عن الظالم ، وحسن

التجاوز عن المسيء ، ولذا نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه حين يشتد أذى قومه يدعو لهم فيقول " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون (١) " .

٤- **كمال التواضع لله سبحانه وتعالى** - وهذا يستلزم خفض الجناح لمن أحب الله تعالى خاصة ، وللخلق جميعا لأن من شأن الكبر تنفير الناس وطردهم ، واحتجابهم عن خالقهم .

٥- **كمال الشكر** : ولا يشكر الله تعالى ولا يشكر الناس إلا عارف بالنعمة وقيمة كل منها ، ولما أن القرآن العظيم هو الرحمة التامة الشاملة لكل نعمة فقد أوتي صلوات الله وسلامه عليه من الشكر بقدر ما أنزل عليه من الوحي ، وهذه مرتبة لم يدركها سابق ولا لاحق .

٦- **كمال الهداية** : وهذا يستلزم الإعجاز العلمي في المعرفة الكاملة بالله سبحانه وتعالى ، وبذا تتم الدلالة الكاملة إلى صراط الله العزيز الحميد ، فهو صلوات الله وسلامه عليه الفاتح للمعارف الإلهية التي فصلها القرآن العظيم ليدخل كل إنسان من أي باب من أبواب المعرفة المناسب لاستعداداته .

ويستلزم ذلك أيضا كمال العلم بما خلق الخلق لأجله ، ليعلم الناس ما للحق عليهم أن يفعلوه ، وما لهم إذا فعلوا ذلك من جزاء عند الله تعالى ، وماذا عليهم إذا لم يفعلوه وما يلحقهم من العقوبة - ويدخل في هذا الباب تفصيل مراتب الكمال الإنساني وبيان آداب كل مرتبة في معاملة الخالق سبحانه وتعالى ليقنّدي به كل متخلق بأية صفة من صفات الكمال ويهتدي به صلوات

(١) قرن هذا الدعاء الجامع حسن التجاوز عن المسيء بطلب السعادة الأبدية له والاعتذار عن إساءته .

الله وسلامه عليه فيما تقتضيه كمالات هذه المرتبة . كما يدخل فيه أيضا تحذير البشر من كل باطل يحجب الإنسان عن الإيمان بالله تعالى ، وتفصيل مراتب أهل الشقاء ليتجنب الناس كل سبب يفضي إلى شقوتهم — وهنا نواح من الإعجاز تتعلق بالتشريع والفقه والأخلاق والاجتماع والتربية والعقيدة والنفس والروح والعقل ... الخ .

٧- **كمال الامثال لما يوحيه الله سبحانه وتعالى** ، وهذا يقتضي أن يكون قول الحق سجية وطبيعة ولا يتصور عنه غيره ، ولا ترجع النفس عن الحق مهما لاقت ، ولو كان في ذلك مخالفة الأحباب ومفارقة الأوطان والتعرض للقتل وجميع أصناف الأذى ولقد طلب المشركون منه ﷺ أن يرجع عن قوله وراودوه عن ذلك بكل حيلة فأبى وامتنع ، ثم نصبوا العداوة ورموه عن قوس واحدة وهو ﷺ على ثباته ورسوخه لا يكثر بشيء . ومن لوازم هذه المرتبة الصدق في كل الأقوال والأفعال والأحوال التي تكون وفق الوحي الإلهي .

ويستلزم ذلك أيضا كمال التمكن من الصبر الحقيقي بصدد كل أذى في سبيل الله عز وجل ، وعدم المبالاة به بلا كلفة ولا مشقة . وإذا كان مصدر الصبر هو الثبات على المبدأ والإيمان به ، فلك أن تتدبر فيما أوتيته صلوات الله وسلامه عليه من قدرة على الاحتمال توازي إيمانه بخالقه سبحانه .

٨- **كمال العدل** : طلب الله سبحانه وتعالى من عباده العدل في معاملتهم مع الله سبحانه وتعالى وكل ما سوى الله من أنفسهم ومن غيرهم . وما ندب عباده إلى فضيلة وحسن خلق إلا و كان الجانب المحمدي أحق بها ، والمرتبة القرآنية تقتضي أن يكون صاحبها موفياً لكل مرتبة حقها ، وهذا يستلزم التبري من جميع تعلقات الهوى المذموم وهو ما خالف الشرع ، إذ أن هذا

يتنافى مع بديهيات مرتبة العدل القرآني ، وأية مخالفة يترتب عليها ملابسة النقص في جميع مظاهر الإنسان في الفعل والقول والخلق والحال . وقد شرع الله تعالى الترجيح في الفضل ولم يشرعه في الشر ، وإنما قال : ﴿ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ - ١٩٤ ﴾ سورة البقرة - ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ - ٤٠ ﴾ سورة الشورى .

٩- الإعجاز في كمال التعلق بالله سبحانه وتعالى مما يوجب كمال السكينة والطمأنينة بتبليغ أوامر الحق عز وجل ، ولو أجمع أهل الأرض على معارضته وعداوته فإنه لا يبالي بهم ولا يكثر بشأنهم ، بل يثبت لهم ولا يراهم إلا بمنزلة العدم . وهذا بخلاف من كانت طمأنينته من تصوره النفسي فإنه تدخله الوسواس والعلل التي تدفعه إلى الخطأ في التصرف ، وتنفت فيه الوهن على قدر ما يقبله منها .

وصاحب الرسالة المحمدية صلوات الله وسلامه عليه قد وقف أمام أهل الأرض جميعا حتى يرجعوا عن كفرهم لا يتأثر بقله عدد ولا بكثرتهم ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّغْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ - ٤٠ سورة التوبة - ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا - ٢٦ ﴾ سورة الفتح ، وإنزال السكينة على رسول الله ﷺ : هو إظهارها بمشاهدة آثارها من الثبات ومصابرة العدد الكثير ، وإنزالها على المؤمنين بإحداثها فيهم واستعدادهم لها منه صلوات الله وسلامه عليه .

١٠- كمال العبودية لله سبحانه وتعالى : وهذا يستلزم بلوغ أقصى درجات الكمال في معرفة أسماء الله الحسنى ، ومقابلة كل اسم من أسمائه عز وجل بآداب العبودية اللائقة بذلك الاسم ، كما يقتضي بيان مراتب عبودية الخلق لله سبحانه وتعالى وتعليمهم طرق العبادة السليمة التي أمر بها الحق عز وجل عباده ليتم نعمته عليهم – ويدخل في هذا الباب الإعجاز في بيان آداب معاملة المخلوق للخالق سبحانه .

١١- تكامل الصورة الخلقية بدرجة واحدة : فلا تجد خلقا كاملا دون خلق ، ولا خلقا معارضا لخلق ، بل إن جميع الأخلاق مستوية في مراتبها ، نابعة من مصدر يقرر أنه أفضل الخلق على الإطلاق ، وما من شخص نبحت جوانب أخلاقه إلا عثرنا عنده على خلق سائد على سائر أخلاقه ، أما أن تكون الأخلاق بالغة الذروة ، وفي نفس المستوى دون تفاوت في درجات كمالها ، وجميعها دلالات على الخالق سبحانه وتعالى ، وطرق إلى مرضاته عز وجل موضحة ما في القرآن العظيم من علاقة بين المخلوق والخالق وبين المخلوق والمخلوق وإن هذا من خصائص المثل الإنساني الأعلى للعالمين صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كان كل خلق ^(١) يستمد من إلزام معين يدفع إلى التخلق به سواء أكان مصدر هذا الإلزام الضمير أم الإلهام أم العادات أم التقاليد أم المجتمع أم الثقافة أم الوراثة ، فما بالك بمن كان مصدر الإلزام فيه هو الوحي الإلهي الجامع ؟ وإذا كان اتساع الخلق يتناسب مع قوة ذلك المصدر فما بالك بمكارم

(١) الأخلاق تتشكل طبقاً لعقيدة الإنسان في تقييم وجوده الذاتي ، وهذه العقيدة هي التي تلزم الإنسان في النهاية باتباع سلوك معين – راجع :

Whitehead : An Anthology . p.p. 471,472.

الأخلاق الصادرة عن المرتبة القرآنية الجامعة ؟ وإذا كان لكل مقام كماله الذي يليق به فما بالك بالكمالات الثلاثة بمقام من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين؟ وإذا كان لكل إنسان من الصفات الحميدة على قدر قابليته ، فما بالك بمن وسعت قابليته ﷺ كمالات شريعته ؟ وإذا كانت دعوة الخلق إلى الكمالات تحتاج إلى كمال في كل ما يدعو الناس إليه من مكارم الأخلاق ، فإن رسول الله ﷺ قد اجتمع فيه من الكمال بقدر ما اجتمع في شريعته ، لأن كل كمال يحتاج في تقريره إلى خلق يناسبه وهذا هو ما قرره صلوات الله وسلامه عليه " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وقد بين القرآن الكريم سموه الخلقي صلوات الله وسلامه عليه ، وكيفيه المدحة الإلهية الكبرى المتفجرة من قوله تعالى ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ ومن هذا الإعجاز الخلقي الذي يخطف سناه الأبصار تدفق البيان المحمدي مفصلاً الإعجاز القرآني هذا التفصيل الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن أكمل البشر على الإطلاق .

وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه فنحن لا ندرك منها إلا ما اعتدناه وإلا ما وسعته عقولنا ، وهذا هو ما يقرره العقل على ضوء الهدى القرآني ، وما يقرره أي باحث منصف يقارن ما بين الهدى الأخلاقي المحمدي وبين الأخلاق الواقعية في أي مجتمع من المجتمعات والأخلاق العملية والنظرية والمثالية في أي فلسفة معاصرة أو غير معاصرة.

ومن نواحي الإعجاز الخلقي في الهدى المحمدي نذكر على سبيل المثال :

١- توضيح المعايير الصحيحة للقيم الثابتة الأصيلة التي ينبع منها كل خلق إنساني .

٢- تحديد معاني الخير والشر بما لا يفسح المجال لأي اضطراب في السلوك يؤدي إلى فساد المجتمعات ، ورسم صورة واضحة للمستوى الخلقي تحتم التفاعل الاجتماعي في مستوى إنساني رفيع ، لتتوافر البيئة الصالحة لنمو الفضائل .

٣- تقرير مصدر الإلزام الحقيقي للأخلاق ، وهذا لا يتم إلا بتفصيل أسماء الله الحسنی وبيان صفاته القدسية سبحانه وتعالى ما يليق بحضرة الألوهية من كمالات ، والتحقق بآداب العبودية الحقّة الملازمة للمخلوق مع خالقه ، إذ من المحال أن يكمل الوجود الإنساني ما لم تتم له المعرفة الصحيحة بالله عز وجل

٤- تكامل البنیان الأخلاقي بتوحيد الغاية النهائية من وجود الإنسان وبالتالي من أعماله وتصرفاته ، ولما كانت الغاية النهائية للوجود هي الله سبحانه و تعالى إذ ما من مخلوق يستطيع أن يدعي أنه خالق لوجوده ، فيتحتّم أن تكون النيات في الأقوال والأفعال ^(١) كلها لله سبحانه وتعالى ، ولا يتم ذلك إلا بالإيمان بالله تعالى ولا يكمل الإيمان إلا بمعرفة شعبه التي فصلها أمام المؤمنين على الإطلاق ، وحينئذ يتم توحيد الكيان الخلقي وتكامله فيكون الحب لله ، والبغض والغضب من أجل انتهاك محارم الله ، والأخوة في الله ، والتعاون على البر والتقوى ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وهكذا في الرحمة والعفو والإعطاء والمنع ... الخ . وإن المبادئ الخلقيّة الخالدة التي تفجرت من مكارم أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه ، تجعل كل مجتمع أو أمة أو إنسان أو مخلوق إنما يمسك بأعنة الكمال لو تخلق بها ، ومما تؤدي إليه ما نذكره على سبيل المثال :

(١) وضع أسس الكمال الذاتي بتوضيح هدف الإنسان في الحياة كيلا يضل أو ينزلق إلى وهدة الانحطاط الحيواني .

(٢) وضع أسس الكمال الاجتماعي من جميع وجوهه ؛ ومنها : بناء العلاقات الاجتماعية على دعائم القيم الأصيلة التي يتوقف عليها الوجود الإنساني

(١) هذا ما يقرره فلاسفة الأخلاق الدينية . فيقرر - مور - أن المؤمن يكرس حياته لخدمة خالقه وإن خدمته لغيره إنما يقصد بها خدمة خالقه ، وهذه المعاملة تمتاز بالثبات وعدم الزوال، لأنه لا يعامل إلا الخالق عز وجل - راجع: Moore:Principles of Ethics . p., 6.

الكامل ، مما يفسح المجال لنمو الفرد نمواً صحيحاً سليماً ، ويجعل البيئة صالحة لازدهار وتوليد الأخلاق التي تتوقف عليها صلاحية المجتمعات ورقبها وتقدمها : كالعدل ، والصرافة في الحق ، والصدق ، والإيثار ، والأمانة ، والوفاء ، والأخوة ، والرحمة ، والمحبة ، والتقوى ، والإحسان وحسن المعاملة وإقرار الضمان الاجتماعي ، والتكافل والتعاون بين أفراد المجتمع ، وإلغاء الاستبداد واستعباد الإنسان للإنسان أو استغلاله والتلاعب به .

(٣) اجتثاث القيم المزورة والعاهات الخلقية : كالرياء والنفاق والكذب وحب الذات حبا يضر بالآخرين ، والتعالي على الناس ، ومثل هذه القيم إذا انتشرت في مجتمع ما شتت مجهود الفرد وبددت نشاطه وجعلت الحياة ملحمة سداها ولحمتها الصراع مع الآخرين ، مما يولد الحقد ، وينشر الكراهية ويحول بين الأفراد وبين أداء حقوقهم وواجباتهم الأصلية ، ويصبح المجتمع أرضاً خصبة تنمو فيها العاهات النفسية والخلقية التي تمتص طاقة الفرد وتحول بينه وبين السلوك السوي ، وإذا استشرت هذه العلل صار المجتمع من الشواذ الذين لا يشعرون بدرجة شذوذهم نظراً لانتشار هذه العلل بينهم ، بل أن مثل هذه المجتمعات تنتظر إلى كل خلق كريم على أنه شذوذ .

ولتأمين المجتمع ضد الانحطاط فرض الإسلام على الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضع أصول التربية السليمة التي تولد في الفرد الشجاعة الحقّة فلا يخشى في الله تعالى لومة لائم . ومن تأمل وتدبر في هذه المسألة وجدها من معجزات الإسلام الخالدة ، فبدونها لا يصح مجتمع .

١- الحيلولة دون نمو قواعد عرفية فاسدة تفتك بالمجتمعات إذ تصبح مصدرا للتقييم المزور مع مرور الزمن .

٢- تحديد العلاقة ما بين السلطة والحرية : هذه العلاقة التي اضطربت في سبيل تقريرها جميع الفلسفات السياسية والاجتماعية ، مما أدى بالتالي إلى اضطراب الأوضاع المترتبة عليها ، والصراع الدائم في سبيل الوصول إلى العلاقة الصحيحة .

هذا كله وغيره مما لا يحيط به حصر : يجعل أي باحث في جوانب الخلق المحمدي يقرر دون تردد أو محاباة أنه أمام أفضل العالمين على الإطلاق ، وإن أقوى الفلسفات الأخلاقية لتتحنى إجلالا لمكارم الأخلاق الصادرة عن أنزل عليه القرآن العظيم :

١- لانفراده صلوات الله وسلامه عليه بأسمى الأخلاق التي يمكن أن يتصف بها إنسان .

٢- وانفراده ﷺ بتقرير الأخلاق العملية الكاملة التي لا يصلح فرد أو مجتمع بدونها ، والهدي إلى الطرق العلمية القويمة للتخلي بها .

٣- وانفراده ﷺ بالتربية الكاملة المناسبة لاستعداد كل فرد ، حتى ضرب أصحابه رضوان الله تعالى عليهم المثل للعالمين جميعا في قوتهم الخلقية بقدر درجة انطباعهم بالتعاليم المحمدية وهذا ما ثبت لنا من أقوالهم وأفعالهم التي سجلها التاريخ .

٤- وانفراده ﷺ من الجانب الخلقي بالإعجاز العلمي والبياني والزماني والواقعي العملي ، هذا الإعجاز الذي تم قبل أن تنتشر مناهج البحث الحديث ووسائله وقبل أن تظهر علوم النفس والاجتماع ، ودون أية دراسة مدرسية للعلوم والأخلاق ، مع أن الفلاسفة قد يفنون أعمارهم في الدوران حول مبدأ

من المبادئ الخلقية التي قررها صلوات الله وسلامه عليه دون أن يصلوا إلى نتائج محققة مع توفر جميع إمكانيات البحث والتخصص ، فما من مبدأ وضعته مدرسة فكرية إلا وقد نقضته مدرسة أخرى ، هذا مع استخدام المصطلحات العلمية التي ترتفع فوق مستوى الرجل العادي ؛ بينما نجد أن جوامع كلمه ﷺ تنفذ إلى الحقيقة نفوذا يفصلها في جلاء لا يحتاج إلى بيان مع إحاطتها بالمعاني التي يتناولها الموضوع فيفهمها أي فرد على قدر مستواه ، ثم إن المفكر أو الفيلسوف قد تخصص في نقطة معينة قد أنقنها ، بينما نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه يقرر كل ما يمس الحياة الإنسانية ، ويضع القواعد الشاملة للوجود الإنساني بالرغم من أنه يواجه كل مقاومة يتعرض لها إنسان .

هذا هو الذي حاز النهاية في جميع الأوصاف الإنسانية المحمودة مما تقتضيه مرتبته : فلا كشجاعته شجاعة ، ولا كسخائه سخاء ، ولا كعفوه عفو ، قد انفرد في كماله الإنساني انفراداً جعل كل مخلوق يقف على ساحل الكمال المحمدي حائراً مبهوراً . وفي ذلك يقول الإمام محمد وفا :

فأنت رسول الله أعظم كائن	وأنت لكل الخلق بالحق مرسل
فؤادك بيت الله دار علومه	وباب عليه منه للحق يدخل
ينابيع علم الله منه تفجرت	ففي كل حي منه لله منهل
منحت بفيض الفضل كل مفضل	فكل له فضل به منك يفضل
نظمت نثار الأنبياء فتاجهم	لديك بأنواع الكمال مكلل

obeikandi.com

تهافت أقوى الفلسفات أمام

الكمال الخلقي المحمدي

وما دمننا بصدد الحديث عن أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه ، فلا بد من أن نأخذ فكرة عن مناهج العلماء في الأخلاق لنعلم مدى صلاحيتها من جهة ، ولنقارن من جهة أخرى بين ما جاءوا به وبين ما جاء به المثل الإنساني الأعلى ، وإن أقوى الفلسفات لا يسعها في هذا الصدد سوى التسليم بالإعجاز الخلقي المحمدي .

الطغيان المادي على الحضارة الحديثة :

لم ينته عصر النهضة الأوروبية حتى كانت الحضارة الأوروبية قد اتجهت اتجاهها ماديا يفصل المخلوق عن الخالق . لقد كان أمام الفلاسفة طريقان لا ثالث لهما :

١/ إما أن تسلك الطريق المستقيم في تفسير الوجود وبذا يمكنها أن تحدد معاني الخير والشر وأن تبني القيم والعلاقات الإنسانية ، ومن ثم المجتمع الإنساني على أسس سليمة ، وهذا ما لا يتم إلا عن طريق المعرفة الصحيحة بالخالق عز وجل ، وهذه المعرفة تحتم الإيمان بالرسالة الخاتمة العامة .

٢/ وإما أن تتجه اتجاهها ماديا لا مفر منه .

ولم تستطع الفلسفة أن تسلك الطريق الأول ، إذ عجزت عجزا مطلقا عن صياغة فلسفة كلية تنتظم الوجود الإنساني ، ولم يكن ينتظر منها سوى هذا الفشل المبكي ، إذ كان على أي فيلسوف يحاول الوصول إلى هذه الفلسفة

الكاملة الصحيحة أن يحيط علما بالكون وما اشتمل عليه من حقائق ، وأن يحيط بالموجودات وعلاقاتها ببعضها ، وبالحوادث وترتيبها ، وبالكائنات ومصائرهما ، وهذا مالا يكون إلا لخالق الكون سبحانه وتعالى وقد فصلته الشريعة المحمدية ، وعلى هذا فلم يكن هناك مفر من أن يخطب الفلاسفة خبط عشواء في تفسير الوجود وفي ربط الإنسان بالخالق ، وكل منهم كان يقرر المذهب الذي تمليه عليه ثقافته ومعرفته ، مما انتهى بهم إلى وضع نظريات لا توضح صلة الخالق بالمخلوق بقدر ما تخضع الخالق — كما عرفوه — والمخلوق لتفسيرات ملتوية مضطربة مادية .

وكان الفلاسفة قد هربوا من الألوهية كما هي مقررة عندهم في أديانهم ، إلى ألوهية من صنعهم ، وصاغوا ديانات لا تنتهي كثرتها دون كثرة واضعها ، وكلها تتراوح ما بين إلحاد وتعطيل وتجسيم وحلول ، وكلها موغلة في متاهات لا تستطيع الفكاك منها ، ولم يكن لها من نتيجة سوى الإغراق في المفاهيم المادية التي إن اختلفت صورها ، لم تختلف معانيها ، و هكذا بدا أن الفلسفة منساقعة إلى هاوية لا بد منها : هاوية التفسير المادي للوجود ، وأخذت فروع الفلسفة المختلفة تتجه اتجاهها ماديا أكيدا يقطع صلة الإنسان بخالقه ، سواء أكانت هذه الفلسفة تعترف بوجود الخالق أم تنكره .

وما جاء القرن الثامن عشر حتى اشتدت النزعة المادية في كل ميدان : فنيوتن مع تدينه ذهب إلى إعطاء الخالق حق الدفعة الأولى للوجود! وذهب آخرون مثل تولند Toland (ت: ١٧٢١) وماثيو تندال ١٦٥٦—١٧٣٣ إلى تفسير العالم تفسيراً ميكانيكياً ، وأكد لامتري ١٧٠٩—١٧٥١ الطبيعة المادية للإنسان في كتابه "التاريخ الطبيعي للإنسان" وانتصر فولتير ١٦٩٤—١٧٧٨ للدين الطبيعي ، ودعا روسو إلى دين ذي وجهين : وجه طبيعي ، ووجه

مسيحي . ثم نشر هلباخ Holbach ١٧٢٣-١٧٨٩ كتابه نظام الطبيعة الذي أعلن فيه أن العالم مادة تتحرك حركة ذاتية تتوالد عنها الموجودات وأيد ديدرو Diderot ١٧١٣-١٧٨٤ وهلفتيوس Helvetius ١٧١٥-١٧٧١ مثل هذه الآراء ، وجرى كتاب الموسوعة الفرنسية ، على هذا النمط ، ونادى كاباني Cabanis ١٧٥٧-١٨٠٨ بأن الإنسان مجموعة أعصاب وأن العقل يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء !

وتجلت النزعة المادية في الثورة الفرنسية حين أعلن زعماء عهد الإرهاب إبريل ١٧٩٣ - أبريل ١٧٩٤ - إبطال الديانة المسيحية وكل الديانات الأخرى وإعلان عبادة الحق والعدل ، أي أن الثورة قد اتجهت إلى عبادة شارتها ! ولما انفرد روبسبير بالسلطة دعا إلى عبادة - الكائن الأعظم - وجعلها دين الدولة الرسمي .

وكان قيام الثورة الصناعية نذيرا بطغيان الاتجاه المادي على جميع الميادين فما أن انتشر استخدام الآلات حتى انتشر معه استغلال الإنسان للإنسان وامتد هذا الاستغلال إلى التشريع والتقنين ، ونحتت الأخلاق والتقاليد بل والمواظ الدينية نحتا ماديا ، وفشل اللاهوت بعيدا عن الهدى القرآني عن حل مشاكل البشر ، فأخذ علم الأخلاق ينفصل نهائيا عن الله تعالى ، وقام اتباع المدرسة السيكولوجية بتأسيس الأخلاق على نظريات نفسية : مثل مدرسة الحاسة الأخلاقية ومن رجالها شافيتسبري ١٦٧١-١٧١٣ ، وهتشسون ١٦٩٤-١٧٤٧ وآدم سميث ١٧٢٣-١٧٩٠ ، ومدرسة المنفعة وأشهر ممثليها في القرن الثامن عشر هلفتيوس .

وطغت المادية على القرن التاسع عشر ، فقامت المذاهب الحسية والتجريبية تنكر ما وراء العالم المحسوس ، ورفض زعيم الفلسفة الوضعية أوجست كونت ١٧٩٨-١٨٥٧ كل المحاولات العقلية لإثبات الدين بحجة أن البحث في أصل الوجود بحث مستحيل على العقل وعلى الفلسفة ، وحاول كونت أن يضع فلسفة كلية للبشر تغنيهم عن الأديان وباقي الفلسفات! وجاهد تلميذه لافيت Laffitte بضرورة نبذ كل ما يتصل بالعالم الآخر ، وقرر أن كل ما يتصل باللاهوت مآله إلى الانقراض . وحتى الذي اعتقد في وجود الخالق سبحانه وتعالى أخذ يتقهقر ، ويضع لاهوتا مجردا من كل سلطة أو عمل ، وصنع آلهة طبقاً لما صورته هواه . فحرم جون تندال Tyndall ١٨٢٠-١٨٩٣ على إله التدخل في الطبيعة أو في الحياة الشعورية ، وأوجب الاعتراف به فقط ! وهكذا بدا للفلسفة أن تقوم بصناعة أرباب تضي عليهم ما شاءت من الصفات ، وهذا إن اختلف مع الوثنية في الشكل ، إلا أنه يطابقها في الجوهر ، وخضعت الفلسفة الأوربية وتوابعها للتفكير المادي سواء دافعت عن وجود الخالق أم أنكرته .

وواصلت الأخلاق نزعتها في الانفصال عن اللاهوت : فاشتهر من بين فلاسفة مدرسة المنفعة : بنتام ١٧٤٨-١٨٢٣ وجون ستيوارت مل ١٨٠٦-١٨٧٣ ومن فلاسفة المدرسة التطورية سبنسر ونيثشه .

وقررت المدرسة المادية إلغاء العقائد الدينية نهائياً ، فأسس موليشوت Moleschott ١٨٢٢-١٨٩٣ فلسفته على أساس أن أصل الحياة هي المادة والطاقة ، وأيد كارل فوجت Vogt ١٨١٧-١٨٩٥ رأي كاباني في تركيب الإنسان ، واقتراح هيكل Haeckel ١٨٣٤-١٩١٩ أن يكون الأثير هو الإله الذي يمكن أن يوفق بين العلم وبين عقائد رجال الدين ! وقرر أوستفالد Ostwald أن الوجود هو الطاقة وعلى هذا الأساس فسر الإله الذي يعتقد والمادة والحياة والحضارة .

التفسير المادي للكون نهاية مراحل الانحطاط الخُلقي :

تقدمت جميع فروع العلوم تقدما استغله الماديون في لم شتات جميع العلوم وصياغتها في نظرية مادية شاملة تفسر الوجود تفسيراً علمياً — كما يحلو لهم — وإلا فهو أبعد شيء عن العلم والعقل والفطرة . لقد عجز الماديون القدامى من فلاسفة اليونان ، وبخاصة المدرسة الذرية — ومن نسج على منوالهم عن سد الشُّغرات المفتوحة في تفسيراتهم المادية للوجود ، أما في القرن التاسع عشر فقد أمكن استغلال الكشوف العلمية والارتكاز عليها لا للإيمان بالله عز وجل بل لسد الشُّغرات المفتوحة في الفلسفات المادية التي تتكرر وجود الخالق ! وممن حاولوا صياغة نظرية مادية شاملة حديثة تفسر الوجود : فيورباخ Feuerbach ١٨٠٤-١٨٧٢ ، ولودفيج بوخنر Buchner ١٨٢٤-١٨٩٩ .

على أن أحداً من الفلاسفة الماديين لم يستطع أن يضع نظرية كلية كونية مثلما فعل ماركس وصديقه إنجلز ، وقد جاءت هذه النظرية في الوقت الذي تم فيه عزل الدين نهائياً عن جميع مجالات الحياة البشرية ومن هنا تستمد هذه النظرية خطورتها ، فقد محت جميع الأديان وجاءت بدلاً منها بالدين الماركسي .

عرض سريع لبعض الفلسفات الأخلاقية الحديثة :

لقد كان من المنتظر أن يتفرق الفلاسفة أيدي سبا في مذاهبهم الأخلاقية ، بعيداً عن تعاليم الشريعة الخاتمة . فالأخلاق الكاملة ، والقيم الصحيحة ومعرفة الخير والشر والسعادة ، والشقاء ، والكفر ، والإيمان ، والضلال ، والعلاقات الإنسانية ، والتكامل النفسي القويم ، كل ذلك يحتم ويقتضي ويستوجب وجود كتاب إلهي معجز فيه تبيان كل شيء ، أما أن يحاول الإنسان أن يتحسس

طرق الخير والشر وهو لا يدري شيئاً عن خصائص نفسه التي تحركه ، بل إن الذي لا يدري مم يتركب وجوده ولا شخصيته هو أعجز من أن يضع كتاباً لهداية غيره لأن الذي يدعي هذه الدعوى العريضة يطلب منه :

أن يحيط بكل شيء علماً . وأن يحيط بماهية كل شيء ولم وجد ، وعلاقته المتبادلة بينه وبين غيره من الموجودات إحاطة تكشف عن مصير الموجودات في تفاعلها مع نفسها ومع غيرها دنيا وأخرى . فمن ادعى هداية العالمين بأيدولوجية يقدمها لهم إنما هو في الواقع يدعي مرتبة الألوهية ليخضع الناس لسلطانه وحكمه ولا يجروء مفكر يملك ذرة من عقل أن يدعي هذه الدعوة لأن مجرد دعواه يعزله عن العقلاء ويقذف به في غياهب عوالم الجنون ، ومع ذلك نجد من وسائل الإعلام ما ينشر آراءهم ويرفعهم إلى مصاف الآلهة وهم لا يمثلون سوى إبليس وجنوده .

أين ذهبت عقول الماديين من أصحاب المذاهب والأيدولوجيات الذين يفرضون خرافاتهم وخزعبلاتهم على الشعوب فرضاً إذ يرون أنها الحل النهائي لما يعانيه الناس من مشاكل لا نهاية لها . إنهم يزيدون الطين بلة إذ يدفعون إلى طرق الغواية والضلال والهلاك والدماء كل من استرشد بهم من ضعاف النفوس والعقول . وعلى أيدي هؤلاء انتشرت اللادينية والشيوعية والفوضى والتبعية والشمولية والإلحاد والإرهاب .

هؤلاء أصحاب العاهات الأيدولوجية يعدون الناس بجنة أرضية إذا هم كفروا بخالقهم . بل عدلوا خطتهم أخيراً فتستروا بالأديان ليصلوا إلى مقاصدهم وهم أول مقوِّض للأديان . أولى لكم أن تحتفظوا بضلالكم لأنفسكم وتمتعوا به ما شئتم . فكل إنسان غني عنكم وله فلسفته في الحياة وهي فلسفة أقوى من فلسفة أي مذهب مادي آخر .

ونعرض فيما يلي صوراً لما قررته أشهر المدارس الأخلاقية الغربية :

المدرسة العقلية :

ردت الأخلاق إلى العقل فجعلته أصلاً للقوانين الخلقية . ويعترض على هذه المدرسة بأنها إما تستند إلى عقل مجرد لا وجود له : ثم حكمته في الحق والخير والشر والقيم ، وإما أنها تستند إلى عقلية كل فرد فتصبح الأخلاق نسبية تختلف باختلاف الأفراد في خير عند هذا هو شر عند غيره وما هو جميل في نظر هذا هو قبيح في نظر غيره . وإذا كانت الأخلاق نسبية فلا وجود لها إذن . ولو سألت العقليين : ما هو العقل ؟ لما فزت بجواب ، فكأنهم يردون الأخلاق إلى مجهول . ومن المذاهب العقلية من احتقر الجانب الحسي في طبائع البشر فجعل الحياة صراعاً في سبيل آماله ومطالبه ، وهذا قتل لطبيعة الإنسان .

ومن أشهر فلاسفة المدرسة العقلية (كانت) الألماني ١٧٢٤-١٨٠٤ مؤسس مذهب الواجب وقد أسسه ليتخلص من الأثينية التي يفرضها العقل النظري والعقل العملي : وقرر أن العقل النظري مشكوك في قدرته في هذا المجال فلا يصح أن يكون أساساً للأخلاق والعقل العملي هو المصدر الذي تستند إليه الإرادة ومنها الخير . ولما كان القيام بالواجب هو أساس كل خير فقد وضع قاعدة عامة تحدد لنا ما هو الواجب وهي :

(اعمل بالمبدأ الذي يمكن أن يكون قانوناً عاماً) ، ووضع لعمل الخير ثلاث قواعد لا يضل من يتبعها وهي :-

١- " اعمل على أن تكون الإنسانية في رأيك غاية لنفسها لا وسيلة لغايات أخرى . "

٢- اعمل دائماً حسب المبدأ الذي تستطيع أن تجعله قانوناً عاماً لا استثناء فيه .

٣- (اعمل كل ما ترى أن ضميرك هو المشرع له وأن إرادتك تقوم من نفسها بتنفيذه) واجعله^(١) قانوناً عاماً .

" قُتل الإنسان ما أكفره ! " وأي كفر بعد الهروب من دين الله عز وجل ، من الشريعة الخاتمة العامة ، إلى دين يضعه من عنده . ولو قال (كانت) يجب أن تصدر جميع أفعالك لله عز وجل ، بدلا من أن يقول للواجب لكان أولى له ثم أولى ولن تصدر الأفعال خالصة لله عز وجل إلا بالإيمان بما جاء به سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه ، فبيان الأعمال البشرية ودرجاتها والخير والشر فيها لا يكون إلا عن الشريعة الخاتمة .

إن "كانت" يطلب : من كل إنسان أن يكون نبيا مرسلا برسالة عامة للبشر ليحدد ما هو الواجب وليحدد مواطن الخير والشر وليعين المصلحة العامة للإنسانية بأسرها .

وإذا تمشيننا مع "كانت" ومدرسته وفروعها لدخل في الواجب ما هو بعيد عن كل واجب ، ولخرج منه كل ما هو من صميمه ! فالإحسان بدافع الشفقة ليس عملا أخلاقيا لأن الدافع فيه ليس هو الواجب ، وكل سلوك يكون مبعثه العواطف مهما كان نيلها ليس بعمل أخلاقي لأنه لا يصدر عن باعث الواجب!

(١) محمد يوسف موسى — تاريخ الأخلاق — ص — ٢٧٣ — ط. ثانية — ١٩٤٣ .

وتحت ستار الواجب بررت الدول الاستعمارية جميع عمليات السطو والنهب والقرصنة واستغلال الشعوب واستعبادها .

وممن نادى بالواجب جويو الفرنسي J.M.Guyan ١٨٥٤-١٨٨٨ إذ قرر وجوب التخلي عن الأديان لأنها في نظره تنصيد الثقة لتفرض الإلزام الخلقي، وهذه الطريقة أصبحت في نظره غير مجدية ، وعلى هذا فإن القانون (الذي طالما كان تأثيره في العالم ، واجب أن تؤمن بالله — ارتد إلى هذا القانون — واجب أن تؤمن بالواجب —)^(١) ويرى أن الدين لم يصبح ضروريا وأن (الإيمان الأخلاقي يصونه جوهره نفسه)^(٢) !

بخ . بخ جاء ليخلص غيره من الوحل فغرق في الطين من أخمصه إلى قمة رأسه . جويو لم يرضه الإيمان بخالقه ، فألغاه ، ليكبل الناس بإيمان وضعه من عندياته ليسعد الناس ! وإني لأتساءل عن هذه الإنسانية التي دفعت جويو إلى الإيمان بالواجب فقط ! أي واجب هذا ؟ لا ندري . لأن جويو صادر بقاعدته هذه مصدر كل واجب ، فمن واجب الإنسان نحو خالقه تتدفق جميع الواجبات الحقّة ، الواجبات الأصيلة وإن إلغاء هذا الواجب إنما هو إلغاء لجميع الحقوق والواجبات . وإذا أردنا أن نصوغ قاعدته في قالب يعبر عن معناها الحقيقي لقلنا إنها (واجب ألا تؤمن بالواجب) ، وهذا على الأقل يفسر لنا سكون جويو — المؤمن بالواجب — عن فضائح فرنسا ومذابحها في شمال إفريقيا ، إذ كان في ذلك الوقت أستاذا من كبار أساتذة الجامعات الفرنسية ، ولعل فرنسا حين كانت تتكل بالوطنيين في تونس والجزائر ، كان منهما في إلقاء محاضراته المزورة عن الواجب .

(١) و (٢) جويو : الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء — ترجمة : سامي الدروبي ص ٦٥ و ٧١

على التوالي .

المدرسة التجريبية : ويدخل تحتها مذاهب منها :

المذهب النفعي : وأساسه سيكولوجي نفسي ، ويرى أن مصدر الأخلاق هو جهود الفرد في سبيل تحقيق ذاته وخدمة مصالحه ، وهذا المذهب يُسقط الإلزام الخلقي ، لأن الإلزام إنما ينشأ عن تعارض بين المصلحة الذاتية والواجب . ومن فلاسفته ^(١) بنام وجون ستيوارت مل.

المذهب التطوري : تأثر بالداروينية ، فاعتبر أن الأخلاق والمثل العليا إن هي إلا مجرد عادات اكتسبها الجنس البشري بالتجربة وعلى ضوء قانون الانتخاب الطبيعي الذي يدفع إلى بقاء الأصحح . وهذا المذهب يسقط المثل الأخلاقية ويقتصر على وصف الواقع ، وهو يناقض نفسه بنفسه حيث يقرر أن الأخلاق الأصحح هي التي تبقى ، والأصوب القول بأن الأخلاق الملائمة للمجتمع هي التي تبقى مراعاة لعدم اللبس : فلو كان المجتمع منحطاً كان الذي يلائمه الخلق الوضع وبالعكس ، ولا يقال إن الأخلاق المنحطة هي الأصحح للمجتمع ، وعلى هذا نبتعد نهائياً عن الأخلاق .

ومن فلاسفته : نيتشه Nietzsche ١٨٤٤—١٩٠٠ : الذي تأثر بمذهب التطور الدارويني ، فطبقه على الحياة وعلى الأخلاق : فالخير في نظره هو القوة — كما عرفها هو — والشر هو الضعف — كما عرفه أيضاً . وبناء على فلسفته تصح الإشادة بأخلاق السفاحين والمستعمرين والمستبدين والطغاة ، كما يجب احتقار التسامح والرحمة والرأفة والإيثار لأنها لا تصدر إلا عن الضعف ! ولم يدرك أن العكس هو الصحيح ، فلا أخط ولا أضعف نفساً من الظلمة والسفاحين ، ولا أقوى نفساً من هؤلاء الذين نعتهم بالضعف.

(١) أدخل بنتام Bentham — ١٧٤٨—١٨٣٢ — تعديلات رئيسية في مذهب المنفعة كان لها أثر

كبير في آراء أتباع هذا المذهب — راجع آراءه في كتابه :

An Introduction to the Principles of Morals and Legislation
Hafner Publishing co., No. Y.1948.

ومنهم هربرت سبنسر الإنجليزي ١٨٢٠-١٩٠٣ : ويرى أن الأخلاق ظاهرة بيولوجية ، وهو يدعم علم الأخلاق بعلم الحياة وقوانينه ، وبذا يعمل على هدم الأخلاق بتجربدها من مصادر الإلزام والمسئولية .

المذهب الوضعي : وأساسه انثروبولوجي اجتماعي ، ويقوم على المنهج التجريبي الاستقرائي ، فهو يجعل الأخلاق فرعاً من علوم الانثروبولوجيا - علم الإنسان - ويحمل وظيفة علم الأخلاق دراسة العادات والتقاليد والشرائع كما تتمثل في مجتمع معين في زمان معين ، ومكان معين ، ولا شأن للوضعيين بما ينبغي أن تكون عليه الأخلاق ولا المثل العليا .

ومن فلاسفته : زعيم الفلسفة الوضعية : أوجست كونت ١٧٩٨-١٨٥٧ الذي قرر قطع العلاقة بين الأخلاق والدين ، وفي نفس الوقت تبرع هو بوضع دين للإنسانية له نظامه الأخلاقي الوضعي الاستقرائي العملي ! وسار تلميذه لافيت على نهجه .

وممن سار على هذا المنهج من الفلاسفة - دوركايم Durkheim - ١٨٥٨-١٩١٧ : الذي قرر إبعاد الدين نهائياً عن التربية الخلقية ، ثم تبرع بوضع تشريع أخلاقي مثلث^(١) الأركان زواياه :

١- روح الخضوع والنظام .

٢- التعلق بالجماعة الاجتماعية .

٣- استقلال الإرادة .

(١) راجع رأيه في كتابه " التربية الأخلاقية ت : د . السيد محمد بدوي .

ولا أدري لماذا ضيق على الناس فلم يجعله مثنى القاعدة أو لا نهائي الأركان!

وأنكر ليفي بروهل Bruhle — ت ١٩٣٩ — في كتابه " الأخلاق وعلم العادات ^(١) " وجود أخلاق نظرية وقرر أن الأخلاق إنما تتبع من العادات ، وعلى هذا فيجب تأسيس علم العادات على الفن العقلي للسلوك كما يجب أن يعتمد الطب على علم الحياة ، فالأخلاق لا تؤسس ولكنها تكتشف بالملاحظة والتحليل ، وعلى هذا فهو يضع المشكلة الأخلاقية بين حدود يستحيل تحديدها مقدما ، ولا يمكن الاهتداء عن طريقها إلى معرفة الخير الأعلى .

ويعترف "بارودي ^(٢)" بما للمجتمع من أثر في تكوين المبادئ الأخلاقية كما يعترف بأثر العقل في التكوين الخلقي ويضع مقياس الأخلاق الفاضلة : الشخص المتزن المتروي في الحكم . وكلها ألفاظ تحتاج إلى توضيح أكثر مما يحتاجه المشكل الأساسي : فما معنى متزن أو متروي ، أو الأخلاق الفاضلة؟

وهناك المذهب الأنثروبولوجي البحث : الذي يرد الأخلاق إلى تاريخ المجتمعات البشرية حتى يصل إلى المجتمعات المعاصرة وفلاسفته طريقتهم في رد الأخلاق إلى أصول قد لا تمت إلى الأخلاق بأية صلة وبطريقة تعسفية تحقق وجهة نظرهم .

المذهب السيكولوجي : ومن أشهر فروعه مذهب التحليل النفسي ، وأشهر رجاله فرويد : ويرى هؤلاء أن النزوع إلى الخير والشر نتيجة تعاليم وأحداث ترسبت واستقرت في اللاشعور عن طريق الكبت وبذا جردوا الأخلاق من

(١) Levy Bruhle, La Morale et La Science des Mours.

(٢) بارودي — Parodi — المشكلة الأخلاقية .

الغائية ومن السمو اللائق بكرامة الإنسان ، إذ أنهم اعتبروا أن الأفعال التي تبدو أمامنا مثالية ، إنما هي صادرة عن التسامي برغبات مكبوتة حبسية لم تتحقق .

المدرسة الماركسية : وهي أخطر هذه المدارس إذ تحولت إلى دين مادي اعتنقته الشعوب المتخلفة ، أسسها كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣ وصديقه انجلز ١٨٢٠-١٨٩٥ ، وقد وضعاً أسساً نظرية شاملة للوجود تركز على ثلاث قواعد : —

أ/ المادية الجدلية : وهي مبنية على أربعة قوانين أساسية :

- ١- قانون العلاقات المتبادلة والترابط الشامل .
- ٢- قانون التغير الشامل أو الواقع حركة .
- ٣- قانون التحول الكمي إلى الكيفي وبالعكس .
- ٤- قانون صراع الأضداد وهو محرك كل تغير .

وبناء على هذه القوانين توصلت الماركسية مبدئياً إلى :

- ١- إنكار وجود الخالق .
- ٢- إنكار وجود الروح ومن ثم البعث والحساب ، وقررت أن الحياة قد وُجدت وجوداً ذاتياً .
- ٣- التفسير المادي للتاريخ .

ب/ التفسير المادي للتاريخ : وإذ أنكرت هذا كله ، قررت أن أسلوب الإنتاج هو الذي يكون الصرح الأعلى للمجتمع : من نظم وعادات وتقاليده وأخلاقه ودين وتشريع وتقنين الخ ...

وقد أدى هذا الأسلوب إلى قيام الملكية وقيام الطبقات ، واستبداد طبقة الأقوى بكل شيء .

جـ/ قررت أن المجتمع المثالي هو المجتمع المؤسس على ما سماه ماركس "الاشتراكية العلمية" أو الشيوعية ، وهذا لا يتم إلا بتفويض "الصرح الأعلى" المبني على وجود الملكية .

نبذت الماركسية التعاليم الخلقية باعتبارها أوامر إلهية أو منسوبة إلى وحي إلهي ، وباعتبارها مبنية على الاعتراف بوجود الروح وخلودها ، وفي ذلك يقول الإعلان الشيوعي الذي أصدره ماركس وإنجلز سنة ١٨٤٨ : (إن النظام الخلفي والدين والقانون ليست إلا جزءاً من الصرح المزيف الذي أقامته ظروف الإنتاج ليعكس مصالح الطبقة السائدة) . والنظام الخلفي السليم في نظر الماركسية هو النظام الذي يؤدي إلى هدم أي مجتمع غير شيوعي لينبني مجتمعاً شيوعياً ، وعلى هذا الأساس وضعت الماركسية مقاييس الخير والنشر ، فكل ما أدى إلى ثورة البروليتاريا فهو خير محض ، وكل ما يؤدي إلى ذلك أو يعرقله فهو شر مطلق — فالماركسي كالفرويدي (لا يؤمن بالعقائد التي تبدو في نظره دائماً عقائد "تغطية" إنه يعتبرها مجرد أعراض يعتبرها مجرد "نتائج — إشارات" لا على "الليبيدو" بل على مصلحة الطبقة)^(١) .

والماركسية تهدم نفسها بنفسها : إذ هي تنكر أساس الوجود كما تنكر أساس أية مسئولية أو إلزام بإنكارها وجود الله عز وجل وإنكارها البعث والجزاء ، وإذا كانت الصروح العليا وليدة مصالح الطبقات السائدة ، فلماذا لا تكون الماركسية نفسها كذلك . سواء في مرحلة الانتقال أو المرحلة النهائية للاشتراكية العلمية وهي الشيوعية الصرفة !.

(١) ريمون رويه — R.Ruyer — فلسفة القيم — تعريب : د. عادل العوا — دمشق ١٩٦٠ ص ١٨٧ .

المذهب المادي السلوكي : ويرد تصرفات الكائن الحي إلى مؤثرات معينة ويذهب إلى إنكار أي عنصر غير مادي في تكوين الإنسان وتفسير شخصيته وبواعثه وتصرفاته ، بل والحياة الإنسانية كلها .

وأضاف بافلوف الروسي عدة تعديلات على التفسيرات السلوكية بتقرير نظرية (الفعل المنعكس الشرطي) = Conditioned Reflex Action (٢) .

والسلوكية بذهابها إلى هذه النتيجة تهدم نفسها بنفسها : فإذا كان جميع التفكير يمكن أن يرد على وجه الدقة وبصورة تفصيلية إلى أنه مجموعة استجابات لمجموعة منبهات (فالمذهب السلوكي نفسه لا يعبر عن شيء سوى حالات خاصة تحدث في أجسام أصحاب المذهب أنفسهم ، وكذلك هي الحال في المذاهب النفسانية المعارضة لهذه المذاهب ، فهي إنما تعبر عن الحالات الجسمية لأصحابها ، ولذلك فإن التساؤل عن تلك المذاهب المختلفة أيها هو الصحيح : كالتساؤل عن أحوال ضغط الدم في الباحثين المختلفين وأيها هو الصحيح : فكلا السؤالين لا معنى له ، لأن سلسلة الأسباب التي تنتهي بتقرير هذه النظرية أو تلك ، شأنها شأن أحوال ضغط الدم : إنما هي مجرد وظائف جسمية ليست بذات علاقة بالحقائق الخارجية التي تدعي وصفها . بل تتصل بالخصائص الجسمية التي هي وظيفة من وظائفها (١) .

وهناك اعتبارات أخرى ترد على المذهب المادي السلوكي منها أن عملية الفعل المنعكس الشرطي ذاتها ، ليست عملية آلية ، وإنما هي عملية شعورية

(٢) تعرضت السلوكية المادية لهجوم عنيف من كثير من أساتذة مدارس علم النفس والتربية منهم Mc. Dougall في كتابه : the Battle of Behaviorism (معركة السلوكية) Modern Materialism (المادية الحديثة) . وأثبت أن الدوافع الغرضية تقوض السلوكية المادية من أساسها .

(١) جود : منازع الفكر الحديث : ت عباس فضلي ومراجعة عبدالعزيز البسام ط بغداد ١٩٥٦ .

تتدخل فيها المراكز العليا للمجموع العصبي ، ومنها كذلك أن المثير المكتسب إذا تكرر عددا من المرات دون أن يصحبه المثير الطبيعي ، فإن قوة المثير المكتسب تضعف وتزول في أغلب الحالات ، فكأن الأفعال المنعكسة الشرطية ليست لها نفس الآلية الموجودة في الأفعال المنعكسة الطبيعية^(٢) .

ومما يصادر المادية السلوكية : أنها تعتمد على مسلمات هي نفسها ماثار الجدل والنقاش وأهمها نفي الإرادة عن الكائن الحي وهذا ما لا تسلم به كثير من المدارس الأخرى .

٢- أنها بنت أبحاثها على أساس أن العلم قد نفذ إلى جوهر المادة الحية وغير الحية ، وهذا افتراض لا يسلم به أحد حتى أصحاب المذهب أنفسهم - بل إن الفيزياء المعاصرة أصبحت تفرض بملء السخرية أي تفسير مادي للعقل .

٣- أن السلوكية المبنية على (المادية الجدلية)^(١) باطلة من أساسها ، لأنها مبنية على إنكار وجود الخالق والرسالات والروح ، وهذا ما يتنافى مع العلم والعقل والوجود نفسه ، وإذا كانت مبنية على قواعد باطلة فجميع ما بني عليها فاسد . لذا يقرر "بلارد Ballard" في صحيفة علم النفس العام - أكتوبر ١٩٢٩ - أن علم النفس قد انتحر على يد السلوكيين وذلك بإهمالهم النفس أو العقل أو الشعور واقتصارهم على مؤثرات جسمية ملموسة وعلى ردود أفعال ملموسة أيضا لا تمثل سوى جانب ضئيل من خصائص النفس البشرية .

(٢) عبد العزيز القوصي : أسس علم النفس - الكتاب الأول ، ط القاهرة ص ٩٧ .

(١) Dialectical Materialism وهو الدين الجديد الذي خفي على الجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي حتى دان به ٢ سكان العالم .

المدرسة الوجودية : تقرر أن الأخلاق تصدر عن تجربة ماضية ، فهي نتيجة الأسلوب الإنساني في الكينونة التي يحياها الإنسان في صميم شعوره ، فالإنسان حقيقة مرنة تخلق نفسها بنفسها ، أو واقعة زمانية قوامها الصيرورة المستمرة .

ويمثلها كير كجورد ١٨١٣-١٨٥٥ - أبو الفلسفة الوجودية ، الذي يرى أنه لا يهم الموضوع ما دامت علاقات الإنسان موسومة بالصدق - فإن الفرد بلا شك يكون على حق ولو كانت علاقاته مجرد علاقة بخطأ أو وهم من الأوهام.

والأخلاق طبقاً لفلسفة جبريل مارسل وليدة تجارب ذاتية معينة ومواقف نفسية محددة ، وعند مارتن هيدجر ١٨٨٩ ، هي نتيجة لمفهوم الإنسان لوجوده الخاص به . على أن للإنسان وجودين : وجود حقيقي وهو الوجود الذي تشعر فيه الذات بأنها حرة مسئولة ، ووجود زائف وهو الوجود المتعين مع الغير ، وهذا الغير يستولى على وجود الذات بما يفرضه عليها من أحوال وأوضاع حتى لينتهي الأمر إلى ذوبان الذات في الغير ، فلا تفكر إلا كما يفكر الناس ، ولا تفعل إلا ما يرغبه الناس . وهذا الذوبان هو ما سماه "السقوط" فالسقوط فرض محتم على كل إنسان إذ لا سبيل إلى التخلص من الغير .

ويرى يسبرز الألماني أن الإنسان منحصر بين جدران حدية لا يستطيع منها خلاصاً . من هذه المواقف : نوع الإنسان من حيث الجنس : ذكر أم أنثى - العصر الذي يعيش فيه - الدين الذي نشأ عليه - الوطن - الأمة التي ينتمي إليها - الخ ... على أن الموقف المركزي من هذه المواقف الحدية هو الموت الذي يطبع جميع أفعال الإنسان بطابع نسبي .

والأخلاق الوجودية إما أن تنتهي إلى إغراق في التشاؤم ، والهمل والقلق ، والعدم ، والألم ، وإما أن تنتهي إلى إغراق في الانحلال وتتحوّل منحي السوفسطائية التي ترى أن طبيعة الإنسان تتمثل في شهواته وأهوائه .

الأخلاق التكنوقراطية :

نَسَلت هذه الأخلاق من اندماج الإنسان في الآلة ، فنشأت مجتمعات بيروقراطية تقنية ، قوامها سلطة الدواوين والمصالح والتقدم الفني التقني . والإنسان هنا يُعَدُّ صالحاً كلما اقترب في سلوكه من الآلات في ترتيبها ونظامها ، وعلى قدر محاكاته يغدو إنساناً عاملاً نافعا نشيطاً جديراً بالتقدير وإذا عجز عن ذلك كان فاشلاً جديراً بعدم الاحترام . وقد حَمَلَ الكاتب الروماني (ك. فيرجيل جيورجيو) حملة شعواء على هذه المجتمعات ضمنها روايته (عندما تدق الساعة الخامسة والعشرين) فوصف النسل البيروقراطي التقني بأنه نسل فاسد ، وقد تخلط بينهم وبين الإنسان لأن وجوههم تشبه الإنسان ، لكن سرعان ما يدرك المرء أنهم لا يتصرفون تصرف البشر: إنهم نسل لهم خصائص الآلات ، تدق في صدورهم الساعات لا القلوب ، إنهم شيء غريب يكتسح العالم الآن .

هذه الأخلاق تدركها حينما يصرخ المظلوم فتجيبه الأوراق والاستثمارات وهذه الأخلاق تؤمن بالإعلانات الملصقة والأوراق المرفقة ، والحريات المصادرة ، إنها أخلاق تستطيع أن توجد مجتمعا منظما مرتباً كالمصنع ، ولكنه خال من الروح خال من الإنسان .

المدرسة الحدسية :

وتذهب إلى أن الأخلاق ملكة مغروسة في الإنسان بالفطرة ، تمكنه من التمييز بين الخير و الشر ، مجردا عن مصالحه الشخصية و أهوائه الذاتية .

ومن مذاهبها: مذهب الضمير الحدسي ، ويقول باتصال الضمير بالخالق سبحانه وتعالى ، ولكن كيف يتصل الضمير بالخالق عز وجل ؟ لابد من اتباع شريعة جامعة تكون مفتاحا لهذا الاتصال ، ومن مذاهبها : مذهب الحاسة الخلقية وقد أسسه شافيتسيري (ت ١٧١٣) .

وهناك الكماليون المثاليون وعلى رأسهم شيخ فلاسفة أوربا هيجل ١٧٧٠-١٨٣١ ويرى أن الأخلاق البروسية هي المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذيه الناس جميعا ، وقد وضع التاريخ على عاتق ألمانيا عبء حمل رسالته الأخلاقية والثقافية ونشرها في العالم أجمع حيث أن شعبها هو الشعب المختار .

ويذهب الفلاسفة المعاصرون إلى التوفيق بين مصالح الفرد والأسرة والمجتمع والوطن ويبينون الأخلاق على هذا الارتباط لتحقيق الكمال المنشود . أي أخلاق ؟ وما هو هذا الكمال المنشود ؟ وما هي مصالح الفرد والجماعة ؟

إن المذهب الحدسي : يناقض نفسه بنفسه حين يرد الإنسان إلى فطرة لا وجود لها إذ حل محلها صرح دنيوي يتحكم في جميع شئونه صغيرها وكبيرها وأصبح الفرد داخل هذا السجن "الباستيل" المحكم يقيس النجاح في الحياة بشدة الانتماء إلى هذا الصرح لا إلى الله تعالى فكانت النتيجة خسرانه المبين ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا - ١٠٣ - الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا - ١٠٤ ﴾ سورة الكهف .

obeikandi.com

الاقتداء بالمثل الإنساني الأعلى

هو السبيل العلمي الوحيد لضمان عدم الانحراف في الحياة

إن سر فشل مثل هذه الفلسفات في الوصول إلى حل مشاكل البشر يرجع إلى طبيعة المعرفة الإنسانية نفسها : فهي معرفة نسبية لا يمكنها الخروج من أبعاد الإمكان إلى مرتبة الوجود الخالق ، لسبب بسيط وهو أن الإنسان مخلوق ، وهي مع ذلك قد استبعدت الوحي الإلهي لا لتبتكر طريقاً جديداً وإنما لتحل هي محل الوحي وتقوم بوظيفته مدعية في ذلك أنها تسلك المسلك العلمي الذي لا مفر منه ، ولو كانت علمية حقا لبنت قواعدها على أساس الوحي الإلهي.

ووقفت هذه الفلسفات موقفاً يجبرها على صياغة نظرياتها كما لو كانت قد أحاطت بالوجود ، بل وإن بعضها قد حدده تحديدا لا مفر معه من الاعتقاد بأنها صادرة لا عن فلاسفة إنما عن خالق لا يرد كلامه سواء في ذلك الفلسفات المثالية أو المادية . فالفلسفات المثالية قد أوجدت إلها معتقدا حددت أقواله وأفعاله ووجوده بما لا يدع مجالا للشك في أنه إله مخلوق . والفلسفات المادية إذ أنكرت وجود الخالق ، ادعت أن في وسعها الحلول محله ، وكان لا مفر لها من إسناد الكمالات الإلهية إلى الطبيعة أو غيرها . وقد انعكس هذا الوضع على جميع فروع الفلسفة سواء أكانت مثالية أم مادية .

والواقع أن كل فلسفة ابتعدت عن الوحي القرآني الجامع قد أصبحت في وضع يحتم عليها أن تقوم هي بوظيفة الوحي الإلهي ، مما انتهى إلى تحديد الوجود تحديداً يتلاءم مع الثقافة التي نبتت فيها هذه الفلسفات ، وسواء رضيت أم رفضت فإن كل فلسفة منها إنما تقترب من الحقيقة أو تبتعد عنها بقدر قربها أو بعدها من الحقائق التي قررها الوحي القرآني ، وسواء اعترفت بالوحي السماوي أم أنكرته فإنها جميعا تشترك في سمات تميزها جميعا منها :

١- ابتكار وتصميم عقائد وضعية : إما بتحديد وجود إله معتقد لا يمت بصلة إلى الكمالات الإلهية كما قررها الوحي الإلهي ، أو أنها تحدد الوجود دون شعور منها على أساس إسناد الكمالات الإلهية إلى المخلوق .

٢- بناء الوجود الإنساني على أساس الوظائف المادية للأعضاء وبذا ينتهي وجود الإنسان كإنسان .

٣- بناء النظم الإنسانية بناء على أحكام الصروح الدنيوية مما أدى إلى الانحراف عن الصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكه البشر .

٤- بناء القيم طبقاً لنظرة نسبية إلى الحياة مما يؤدي إلى اضطرابها وتناقضها.

إن النظرة البشرية للحياة ذات مدى محدود وهذا باب من أبواب النقص من المستحيل سده ، لأن الذي يبين حقائق الوجود يجب أن يكون غير قابل للتبدل والتحول والتغير ، غير خاضع للزمان والمكان ، غير متجزئ ولا منقسم ، غير متحيز ولا منته ، محيط بالوجود الزماني والمكاني ، كامل لا ينقص ولا يزيد ، علمه محيط بكل شيء ، قادر ، خالق ... إنه الله خالق كل شيء ... والذي يهدي العالمين إلى خالقهم ويوضح لهم الصراط المستقيم يجب أن يوحى إليه بكتاب إلهي فيه تبيان كل شيء ... إن النظرة الشاملة الكاملة للوجود والحياة لا تكون إلا عن طريق واحد : هو طريق الشريعة المحمدية الخاتمة لجميع الشرائع .

إن كل مذهب فلسفي يجد نفسه في النهاية أمام هذه المشاكل التي لا يجد لها حلاً ، يقف أمامه مجرداً من كل سلاح أو منطق :

١- ما هو الخير ؟ ما هو الشر ؟ ما هي السعادة ؟ أين توجد ؟ ما هي الفضيلة ؟ وكيف تعرف ؟ ما هي الرذيلة ؟ ما هي عناصر ومقومات كل من الفضيلة والرذيلة ؟ وكيف يتم التحلي بهذه والتخلي عن تلك ؟ ما هو مصدر الإلزام ؟ وكيف تبني العلاقات السليمة بين الأفراد ؟ وما هي شروط العلاقات

الصحيحة ؟ وكيف يبني المجتمع بحيث يحال دون قيام العلاقات الفاسدة ؟ ماهي شروط تكامل المجتمعات ؟ الخ .. الخ .. كل سؤال إنما يوصلنا إلى الرسالة المحمدية الخالدة وجميع المشاكل تحتم الإيمان بالشرعية المحمدية الخاتمة لجميع الشرائع . إذ لا يمكن أن يعين ويحدد لنا بوضوح الحقيقة النهائية إلا من أحاط بكل شيء علما إلا من علم حقيقة كل شيء ، وارتباطه بغيره ، ومصيره ، إن الشمول الذي يجري وراءه الفلاسفة ، والمشاكل العامة للإنسانية لا يمكن معرفتها إلا عن طريق كتاب إلهي فيه تفصيل كل شيء . فإلى أين المهرب أيها الناس ! إلى أين تذهبون ؟

ومن يتأمل مجهودات الفلاسفة من الأمم المختلفة ، يتبين له الفارق الهائل بين ما هو من عند الله عز وجل وما هو من عنديات البشر . بين القرآن العظيم وبين كلام البشر . إن جميع النظم والعقائد المبنية على الجهل بالكتاب الإلهي العام : بالقرآن العظيم إنما هي نظم ظنية وليست يقينية ، ولا يمكن أن يسعد الإنسان بنظم مبنية على الجهل بحقيقته ، وإن ما نشاهده من تخطيط البشر في بديهيات المعرفة والوجود لهو أكبر دليل على افتقارهم المطلق إلى الهدى القرآني الكامل : بل إن المعرفة الوضعية في أرقى صورها قد عجزت عن إدراك البديهيات الأولية التي لا بد من الإحاطة بها لبناء أي نظام وتوضيح أي مشكل ، ولا أ طرح في هذا الصدد : مشاكل الوجود ، والعقل والروح والذات والشخصية لأحظى بجواب شاف . فقد يُفني عالم من العلماء جميع عمره الطويل في دراسة النفس ، فإذا ما سألته عن حقيقة النفس لم يجد جوابا . لا أ طرح أسئلة معقدة كهذه فالعجز عن الإجابة عليها أمر مفروغ منه بل يكفي ما نشهده من اضطراب العلماء المتخصصين في تعريف الألفاظ التي نحتتها وتداولها العامة في حديثهم اليومي ، ولا نستغني عن تحديد معناها لتجنب اللبس في علاقاتنا وفي تشريعاتنا مثل : الحرية ، الصالح العام ، الديمقراطية ، الاشتراكية ، وفي الأخلاق لن نجد اثنين يتفقان على تعريف خلق معين ! كل ما في الوجود يعلن افتقار الإنسان الشامل إلى الخالق جل جلاله ، فعندما

يتعمق الإنسان في أي شيء يجد نفسه وجها لوجه أمام الحقائق التي قررتها
الشرعة الخاتمة .

فالبشر وقد عجزوا عن الإحاطة بالوجود وتفصيله ومصير الموجودات ، هم
أعجز من أن يضعوا نظاما كونيا شاملا مبنيًا على المعرفة الإحاطية . ومع
عجزهم هذا ، لم يبادروا إلى الإيمان بالرسالة العامة للعالمين ، بل أعرض
من أعرض ونأى بجانبه وأخذ يفكر لعله يهتدي إلى وضع نظام كوني شامل !
أعرضوا عن دين الله تعالى ليصنعوا أديان من عندياتهم يسرون عليها مثل
دين العقل ، دين التجربة ، دين الحس ، دين الطبيعة ، دين المادة ، دين
المادية الجدلية ، دين الحياة ، دين المنفعة ، دين الصدفة ، دين الديمقراطية ،
دين الحرية ، دين العبقرية ، دين الشك ، دين اللادين ! لقد هربوا من دين الله
تعالى فسقطوا في أديان مزيفة باطلة لا ينتهي عددها دون عدد واضعيها .

إن كمالات الخالق سبحانه وتعالى ، وما تقتضيه أسماؤه وصفاته ، وإن حقائق
المخلوقات التي تثبت عدم قدرتها على خلق وجودها ، وافتقارها المطلق إلى
خالقها ، وإن تركيب الإنسان الذي يقتضي : الخلود ، والثواب ، والعقاب كما
يحتم معرفته بخالقه وما يليق بكمالاته ، وآداب معاملته ، وحاجته المطلقة إلى
ما يتم به كمال وجوده الدنيوي والأبدي ، وإن تركيب الإنسان الذي يحتم اتباع
من أرسله الله تعالى كافة للناس ورحمة للعالمين وأنزل عليه كتابه المبين لكل
شيء والمفصل لمراتب الوجود . وهيئات هيئات أن يهتدي إنسان إلى الحق
مالم يقتد برسول الله ﷺ الذي فصل ذلك الكتاب الإلهي الجامع ، ودعا الخلق
على بصيرة من الله سبحانه ، وأن كل إنسان يهتم بحماية البشرية من
مصيرها الرهيب الذي يترقبها ، ويهتم بسعادة البشر وخيرهم جميعا : عليه
أن يعمل على جمع البشر على كتاب الله عز وجل وهدايتهم بهدي خاتم النبيين
صلوات الله وسلامه عليه .